الواقعة الأخيرة في سيرة أبي ديك الهلالي

كان ذلك في أحد أيام شهر أغسطس الساطعة، عندما كانت الجنازة المهيبة التي تخيلتُها، لا شك تشقُ عالم الحظيرة الآن! كانت توسلات الديك أسخف من المعتاد في مثل تلك المواقف! لا شك أنه لم يتوسل كأب، يرغب في تمضية بقية حياته في تربية صيصانه الصغيرة. وبدلاً من ذلك، رفع رقبته في شمم، ومد عرفه أكثر، ومطه للأعلى . حتى أنه رفض بوقاحة أن يموت عندما أخذ يتمايل مزهوًا، ويترنح يمينًا ويسارًا كزائر زار لأكثر من نصف ساعة خلسة عن الأعين.

ملوثي الأيدي بالدماء نزلنا إلى الأسفل، قالت ماما بعدما فرغت من بعض الأشغال: اذهبي وأحضري الديك الذي ذبحناه. كانت رقبته مسلوخة حقًا في جزء منها، بل إنّ عروقه كانت ظاهرة، وكان ينزف دماءً كثيرة. رغم ذلك، فقد كان يتجول في السطح على مهل، وبرشاقة مترنحة قليلاً، لكن خطواتها ثابتة وكبيرة يبدو أن شعلتها لن تنطفئ، وكأنه يقول لك: أنه لن يموت أبدًا ! كان شامخًا، وحزرت أنه سيعيش حقًا طويلاً جدًا، لو أننا فقط ضمدنا جرح رقبته. كان منظره مهولاً، كأنه قد بُعث إلى الحياة من جديد! كيف استطاع هذا الديك أن يصمد هكذا، وأن ينتفض، رغم أننا قد رأيناه مرميًا على الأرض قبل أن نتركه غارقًا في دمائه؟ لو كان يخدعنا فحسابه عسير؛ لأنه سوف يقضى نحبه الآن.

"ماما.. ماما" ناديت بصوتٍ عالٍ مذعورة. صعدت إليّ وهالها المشهد، بقينا مذهولتين للحظات. إنه يتمشى، ويتبختر، رغم دمائه في أرجاء السطح. إنه يقف على رجليه رغم كل شيء. ها هو يتقدم أكثر، ويستجمع قواه عندما رآنا، فيذرع المكان جيئة وذهابًا، ويدور حولنا كأنه لا يخشانا، ها هو ينظر بتحدٍ، نظرةً لن أنساها في حياتي كلها !

لو أنه كان إنسانًا لربما أخرج من جيبه سيجارًا أيضًا، وشرع في التدخين بتلذذ، يا له من منظر! قلت لنفسي وقتها: هذا الديك الأسطورة، يستحق أن أكتب عنه قصة! سأروي فيها بالتفصيل وقائع جنازته التي تخيلتها آنذاك بوضوح وتأثر عميق. سأحكي كيف ستنوح الدجاجات، وتولول الصيصان الصغيرة؟ وكيف سيرتدون جميعًا ثياب الحداد على هذا الزعيم العظيم الشجاع؟ وكيف ستكون مراسم التشييع!

إنه أسطورتهم الخاصة، مثلما أنّ لنا نحن البشر أساطيرنا أيضًا. "هاتي السكينة بسرعة". قالتها أمي على عجل .وتآمرنا عليه بالالتفاف حوله على حذر ،كأننا نقترب من مجرم خطير أو قطة خارقة بسبعِ أرواح، يمكنها أن تحمل نبوءة شريرة.

دققت أمي النظر، وأخيرًا انتهنا إلى السر. هناك عرقٌ مقطوع وآخر سليم في رقبته. ولكنه شيء لا يصدق! كيف له أن ينهض هكذا رغم وجود عرق مقطوع في رقبته؟! قالت ماما: هذا العرق أسمك من الآخر. وفي ثوانٍ، سيحت دمه.

وقفت أمام اللوحةِ متأملة، وتذكرت أبا ديك الهلالي، الذي عاش فوق سطحنا فقط، نحن وحدنا، ولم يعش في أي مكانٍ آخر. يا له من شرف وفخر! عندما انتشلتني أصوات المعجبين بلوحة المدخن من ذكريات طفولتي البعيدة.